

صالح الخريف: المسرحية والأنشودة في أدبه الثوري

أ. الحاج موسى بن عمر

المدرسة العليا للأساتذة بوزريعة الجزائر

يعتبر الأستاذ الدكتور صالح الخريف من أبرز الكتاب الجزائريين الذين أفادوا الأدب والتاريخ معا. ذلك أن مؤلفاته زاخرة بالوثائق والمعلومات الهامة التي جمعها من مختلف الصحف والمجلات والمكتبات الخاصة والعامة في المغرب والمشرق. فغدت مؤلفاته مراجع معتمدة يسرت للباحثين الجزائريين العمل ووفرت عليهم الجهد لإنجاز المزيد مما يخدم الفكر الجزائري المعاصر (□).

ويكفي في هذا الشأن أن أسوق بعض العناوين التي تصدرت بعض إنتاجه مثل (شعر المقاومة الجزائرية) و(صفحات من الجزائر) و(الجزائر والأصالة الثورية) و(من أعماق الصحراء) و(أطلس المعجزات) وغيرها مما نشر له ومما لم ينشر بعد مثل (المفتري عليهم من العرب والبربر في المغرب العربي) من المؤلفات التي حاول الكاتب من خلالها إبراز الدور المحوري الذي أدته الحركات الوطنية والإصلاحية والأدبية في إيقاظ الوعي الحضاري والهوية الوطنية لشعب الجزائر خصوصا والمغاربة بوجه أعم (ب).

وفضلا عن تميز هذه الكتابات بصبغة التعالي عن الحساسيات الحزبية والمذهبية والجهوية، وبانتهاج الطرح الموضوعي وبالتدقيق العلمي، فإنها متميزة أيضا بتأكيد البعد العربي

1: محمد صالح الجابري: التواصل الثقافي بين الجزائر وتونس ط1 دار الغرب الإسلامي بيروت 1990 ص 297.

2: نفسه ص 298.

الإسلامي للشعب الجزائري، وإحكام التواصل والتقارب بين أقطار المشرق والمغرب، ويعد هذا البعد إحدى أبرز السمات في جميع كتابات المؤلف بدون استثناء، ولا يبذل القارئ كبير عناء ليلمس ذلك جليا في كل جملة وفي كل سطر^(٣).

وفي هذا الصدد يقول صالح الخريفي: "عروبة المغرب العربي عروبة أصيلة خالدة لأن الإسلام كان ولم يزل المدخل التاريخي لها، أصلها بقوة الروح وخلدها بصلابة العقيدة ظلل أرضيتها بالدستور السماوي وربط مقومها الأساسي بلسان عربي مبين. وأنت إذا أردت أن تدخل هذه البيوت المغربية فادخلها من الإسلام وبالإسلام، فستكشف لك العروبة في أقصى منابعها عراقية، وأروع مواقفها بطولية، وأسمى غاياتها إنسانية. ولو لا الإسلام لما بقيت للعروبة بقية في هذه الربوع التي ظلت على مر العصور هدفا للحملات الصليبية المتعاقبة"^(٤).

ولعل هذا هو مما يزيد هذا التميز وضوحا عند الأستاذ الدكتور صالح الخريفي خصوصا وعند الكتاب المغاربة عموما عن نظرائهم من كتاب المشرق العربي وبخاصة دعاة الفكر القومي الذين سعوا سعيا حثيثا إلى إضفاء الطابع اللائكي العلماني على

3: نفسه 299. لقد أفرد الكاتب لهذا البعد العربي والإسلامي للجزائر والمغرب الكبير كتابا مستقلا سماه (في رحاب المغربي العربي) انظر نفسه ص 299.

4: د. صالح الخريفي، في رحاب المغرب العربي، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت 1985، ص 301.

هذا المفهوم تحت وطأة الضغوط السياسية، التي أفرزتها تداعيات الصراع، واستفحال النزاعات الدينية والمذهبية والطائفية^(سم). ويقول الخريفي في هذا الشأن متحدثا عن الرسول الأعظم محمد صلى الله عليه وسلم: "هذا هو رسول الإنسانية، ورجل القومية العربية الذي نهتدي به ونخدم القومية العربية خدمته، ونوجهها توجيهه، ونحيا لها ونموت عليها، وإن جهل الجاهلون، وخدع المخدوعون، واضطرب المضطربون"^(شم).

وبعد هذه اللوحة المختصرة عن أهم الخصائص التي تطبع كتابات الخريفي والتي تتدرج في إطار الانتصار للقضايا العربية والإسلامية، نحاول أن نطرق من خلال هذا المدخل جانبيين من جوانب إنتاجه الأدبي الغزير، ألا وهما: المسرحية الثورية، والأنشودة الثورية.

أولا: المسرحية الثورية

تعتبر المسرحية الثورية من أهم الألوان الأدبية التي واكبت أحداث الثورة الجزائرية. ولقد أسهم في إنتاج هذا النوع من الأدب الثوري العديد من الكتاب الجزائريين والمغاربة بشكل عام. ولعل ما يجمع هؤلاء الكتاب - إضافة إلى أن مدار إنتاجهم المسرحي هو القضية الجزائرية، ووقائع الثورة التحريرية،

5 : محمد صالح الجابري، المرجع السابق ص 301.

6 : د. صالح الخريفي، المصدر السابق، ص 129 .

وأبعادها المغاربية والقومية والإنسانية، والإحساس المشترك المتجاوب مع شرعية هذه القضية والمناهض للاستعمار والمدين لممارساته الوحشية - قلت إضافة إلى ذلك فإن أعمال هؤلاء جميعا كتبت ونشرت بتونس إبان الثورة الجزائرية، وبالضبط بين 1957م و1961م^(٦).

ومما يتقاسمه أصحاب هذه النصوص المسرحية أن جلهم ليس من أهل المسرح، ولم يكن سابق عهد بالإنتاج المسرحي، وهؤلاء هم مصطفى الأشرف وصالح الخريف وعبد الله الركبي من الجزائر ومحمد فرج الشاذلي من تونس وعبد الله القوياري من ليبيا، فهؤلاء كلهم لم يسبق لهم إنتاج منشور في هذا الفن ما عدا هذا الأخير الذي يعد من أعلام الأدب المسرحي الليبي المعاصر^(٧).

وعليه يتبين لنا أن اقتحام مجال الأدب المسرحي لم يكن لذاته بقدر ما كان يرمي إلى أبعد من ذلك، سعيا لتنويع وسائل الصياغة والتعبير للتعريف بثورة التحرير.

7: الجابري، المرجع السابق ص ص 148 - 149.

8: نفسه، ص 149.

9: نص هذه المسرحية كان أصلا باللغة الفرنسية، وأرسله مؤلفه إلى هذه المجلة من سجن (لاصونتي la santé) بباريس حيث كان رهينة من جملة الرهائن الجزائريين المختلطين في 22 أكتوبر 1956 في حادثة القرصنة الجوية الفرنسية الشهيرة. وقد ترجمتها أسرة المجلة إلى العربية. وانظر مجلة الفكر الصادرة في جويلية 1957. وانظر الجابري، نفسه، ص 153.

إن أول ما نشر في تونس عن الثورة الجزائرية في الفن المسرحي للكتاب الجزائريين كان بمجلة الفكر للكتاب مصطفى الأشرف بعنوان (الباب الأخير)^[10]. ويصور صاحب النص في هذه المسرحية التي لقيت وقعا عميقا لدى أوساط الطلبة الجزائريين في جامعة الزيتونة، ومنهم صالح الخريف. ولقد اهتدى هؤلاء إلى تكوين فرقة مسرحية هاوية، وقاموا بإخراج هذا النص المسرحي وتمثيله على بعض المسارح التونسية. ولقد كان المجاهد صالح الخريف هو المشرف في ذات الوقت على تدريب الطلبة على النشاط الثقافي لاتحاد الطلبة المسلمين الجزائريين بتونس^[11].

وفي هذه الأجواء التي تفيض حماسة أقدم أبو عبد الله صالح (وهي الكنية التي عرف بها الأديب صالح الخريف خلال هذه الفترة) على وضع مسرحيته (في المعركة) التي لم يتم نشرها وقد كان ذلك سنة 1957^[12].

ومن خلالها حاول الخريف تقديم نموذج لأمثاله من الطلبة الجزائريين المهاجرين مسقطا في شخصية الطالب عبد الحميد التي كان يزاوّل دراسته في المهجر، وكان يعيش أزمة نفسية حادة، وصراعا داخليا مريرا بين قمة الجهاد بالقلم والانقطاع

10: الجابري، المرجع السابق ص 155.

11: يذكر الأستاذ محمد صالح الجابري أن نص هذه المسرحية قد استلمته من صاحبه صالح الخريف، أنظر نفسه ص 153.

للدراسة التي من أجلها هاجر الوطن والأهل وبين الرغبة العارمة والملحة في الالتحاق بمعاقل المجاهدين في الجبال.

وقد كان هذا الصراع يبرز ويشتد كلما زارهم في تونس أحد المجاهدين في معرض مهمة ما فيعظم إحساسه بالتقصير في أداء الواجب الوطني، ويخيل إليه أن الظرف ليس للدراسة والعلوم إنما هو للاستماتة والهجوم.

وقد كشف بطل المسرحية عبد الحميد إلى أحد المجاهدين الذين نزلوا ضيوفا عليه هذه المعاناة النفسية مثلما في دور يوسف. وكان موقف المجاهد الضيف يوسف أن الجهاد بالقلم لا يختلف في شيء عن الجهاد بالسلاح وأن مداد العلماء يساوي العمل في صفوف المجاهدين في الجبال.

ورغم ثقة عبد الحميد الكاملة بإجابة يوسف، وإيمانه بصدق موقفه من هذه المعادلة إلا أنه لم يكن راضيا عن نفسه، ويطمح في أداء الدورين معا والقيام بالواجبين دون التفريط في أحدهما.

ويوسف هذا الذي أدى دور المجاهد الضيف لم يكن في واقع الحال إلا المجاهد الشهيد يوسف زيغود الذي كان - حسبما أفاد به المجاهد صالح الخريفي- يزور تونس مرارا، ويجتمع بالطلبة

بدار البعثة الميزابية 17 نهج ابن خلدون حيث كان يحثهم على العلم والمثابرة على التحصيل (بر□).

وفي غمرة هذا الحوار الذاتي لعبد الحميد وصراعه مع أفكاره المتناقضة حيناً وذلك الحوار الثنائي مع يوسف حيناً آخر، يتلقى عبد الحميد رسالة من خاله من عمق الجرائر متضمنة أخبار نكبة أمت بالأسرة بعد أن حاصر العدو "دوارهم" وقبلة بمدافع من كل صوب، وارتكب مجزرة في حق السكان بمن فيهم أسرته التي لم ينج منها سوى أخيه الذي التحق بالجبال، كما تضمنت الرسالة أخباراً مخزية تعرضت لها أخته، وجده العجوز الذي ذبح ومثل به أشنع تمثيل على يد جنود العدو الأوغاد.

ولقد كان لهذا الخطاب الفصل في القرار، والحسم للأزمة والحد من التردد.

ولم يبق سوى العودة إلى الوطن والالتحاق بصفوف جيش التحرير الوطني للقصاص من العدو الذي أباد أسرته وأهان شرفها بعد أن انتزع مباركة المجاهد يوسف لما عزم عليه.

ودخل البطل عبد الحميد المعركة بكل قواه متولياً مهمة التحري والخطابة والتوجيه بين الثوار وهم يتأهبون للهجوم على أحد مراكز العدو، وتعلو لغة الرصاص في كل اتجاه، ويسقط عبد الحميد جريحاً في هذه المعركة التي اختزلت كل معارك ثورة

التحرير، ويسحبه رفاقه بعد أن تفتنوا إليه - إلى أحد الأكواخ حيث تتولى أمره إحدى العجائز داخله، تضميدا للجراح وإخفاء لأثره عن أعين العدو.

وبانتهاء المعركة شرع جنود العدو كالعادة في تمشيط المنطقة ويقصدون كوخ العجوز للانتقام منها - شأنهم عادة الانتقام من المدنيين العزل في محيط المعركة. وفي اللحظة التي قرر جنود العدو إطلاق النار على المرأة العجوز، ينطلق من عمق الكوخ وابل رصاص من رشاش عبد الحميد الذي كان يراقب المشهد في الظلام فيحصدهم جميعا.

وعلى وقع الرصاص يسرع المجاهدون صوب الكوخ فيتفاجئون بركام من الجنود، وبعبد الحميد الجريح واقفا متأبطا رشاشة في شموخ والعجوز إلى جانبه وهي تزغرد فرحا وابتهاجا. وخشية الانتقام يسحب المجاهدون رفيقهم عبد الحميد والعجوز من الكوخ، ويودع عبد الحميد مصحة من مصحات الثورة لاستكمال العلاج.

وتنتهي أحداث هذه المسرحية بخروج عبد الحميد من المصحة معافى في تزامن مع تبشير النصر بإقامة حفل مشهود بساحة الأمير عبد القادر، والبطل عبد الحميد يعلو منصة الشرف إلى جانب قادة الثورة لاستعراض كتائب جيش التحرير بعد أن أعلن عن استقلال الجزائر في حضور حشود من الجماهير وهم في

غمرة يهتفون ويهزجون فرحا بهذا اليوم المشهود، وهذا النصر المؤزر.

ومن جملة الخطباء الذين تداولوا على المنبر يصر عبد الحميد الضابط الشاعر أن يضمن أحاسيسه وأفراح شعبه في قصيدة معبرة عن أمجاد الثورة وسط تجاوب الجماهير وهتافه. وهكذا ومن خلال ثلاثة فصول قصيرة يختصر الكاتب صالح الخريف وقائع الثورة من خلال معركة واحدة، لكن مكثفة التعبير والدلالة لتحوصل محنة الجزائر خلال سنوات الجمر.

ثانيا: الأنشودة الثورية

لقد كانت علاقة صالح الخريف بالأنشودة الوطنية تعود إلى سنوات الأربعينيات، أثناء تتلمذه بمعهد الحياة الثانوي بالقرارة بمنطقة ميزاب بالجنوب الجزائري، حيث كان النشاط الثقافي للمعهد يزخر بعدد القصائد الوطنية بيد أن عهد صاحبنا بالأنشودة الثورية كان - فيما يبدو - متزامنا مع اندلاع الثورة التحريرية، أيام كان طالبا بتونس. وأبرز نشيد في هذا الشأن كان (قسما)، إذ كان التدريب عليه بلحن الأستاذ التونسي محمد التركي.

ويذكر صالح الخريف أن التدريب على هذا النشيد كان يتم في دار البعثة الجزائرية من وادي ميزاب، في تونس، في 17 نهج ابن خلدون (باب منارة). وكان حينئذ محمد العساكر رئيس هذه البعثة.

ويقول الخريف في هذا الصدد: "لقد كنا نتدرب على هذا النشيد في جنح الظلام، وفي القاعة الداخلية لدار البعثة ذي الطراز الأندلسي، بعد أن نوصد الأبواب، ونتناوب الحراسة على نهج ابن خلدون، حرصا على سرية النشيد، قبل توجيهه إلى داخل الجزائر، وكنت أحد أفراد البعثة" (ترق).

وبارتباط العلاقة بين الأستاذ الملحن محمد التريكي وبين صالح الخريف وزملائه طلبة البعثة، غشي أبو عبد الله صالح (كنية الخريف التي اشتهر بها في هذه الفترة) مدخلا جديدا للأنشودة الثورية، حيث قدم للتريكي نشيد (صوتنا الجبار مثل الرعد يدوي) سنة 1956، وأنشدته المجموعة الصوتية للإذاعة التونسية (يرق).

وقبل انتقال أبي عبد الله صالح إلى القاهرة في أواخر سنة 1957 ترك عند الأستاذ التركي أو عند الإذاعة التونسية نشيد (بنت الجزائر) لتلحينه، ثم أعاد تقديمه في القاهرة للسيدة (فايزة كامل) فكلفت بتلحينه أخاها الأستاذ عبد الرحمان الخطيب فأنشدته بصوت العرب، وقد اشتهرت هذه السيدة بأدائها الأناشيد

13: د. صالح الخريف، المفترى عليهم من العرب والبربر في المغرب العربي، مرقون، ورقة رقم 226.

16: نفسه، ورقة 227.

17: نفسه، ورقة 228.

الوطنية الثورية أيام العدوان الثلاثي على مصر والصراع العربي الإسرائيلي في الخمسينيات والستينيات.

ولقد كان للأديب المجاهد صالح الخريف مشوار طويل مع الأنشودة الوطنية قد لا نوفق على حصره في هذا المقام، وسنحاول ذكر معظمها ما وسعنا ذلك:

قصيد (يوم الجزائر) وقد كان من إنشاد السوري رفيق شكري بمناسبة يوم الجزائر الذي قررته شعوب آسيا وإفريقيا في مؤتمرها المنعقد بالقاهرة أواخر 1957م.

قصيد (أنا لاجئ) وقد كان من إنشاد السوري ياسين محمود وقد ألقى الشاعر الخريف هذا النشيد في الحفل الخاص الذي أقيم للجزائر بالقاهرة قبل أدائه ملحننا.

قصيد (الجزائر تتكلم) الذي أعد خصيصاً لأم كلثوم بعد أن التقى بها الأخوان سعد دحلب ومحمد العربي دماغ العتروس في المؤتمر الآسيوي الإفريقي بالقاهرة ووعدتهم على أداء قصيد عن الثورة إلا أنها اعتذرت بعد ذلك. ومثل ذلك حصل في 1958 مع فريد الأطرش الذي اعتذر منذ البداية وأبدى استعداداً للتبرع بأي مبلغ مالي للثورة مقابل عجزه عن ذلك.

أما قصيد (من وراء القضبان) و(نداء الضمير) و(الصاعدون إلى الجبال) فقد كان ثلاثتها من تلحين رياض السنباطي وإنشاد فائزة أحمد للأول، ووردة الجزائرية للثاني والثالث.

ويقول صالح الخريف خاتما سرد مشواره مع الأنشودة الثورية بقوله: "وبين الجزائر وتونس والقاهرة ودمشق، وعلى مدى الساحة العربية من المحيط إلى الخليج قمم شامخة من التأليف والتلحين والغناء، جندت أنفاسها لاستقلال الجزائر".

ومجمل القول إن صالح الخريف كان من خلال المسرحية والأنشودة يود استقطاب شريحة واسعة من الجماهير العربية لطالما أهملت وهمش دورها في المساهمة في فعل شيء ما مهما كان بسيطاً من أجل القضية الجزائرية وإطلاعها بما كان يجري في الجزائر من أنواع الإبادة والتوحش ضد شعب عربي مسلم. وهذه الشريحة هي التي تتردد على المسارح والقاعات العامة، وهي خطوة هامة في سبيل استقطاب الرأي العام الدولي.